تل آفيس والمنطقة المجاورة له في العصر الحجري النحاسي المتأخر

ستيفانيا ماتسوني

تعريب: إحسان شيط

تم في السنوات القليلة الماضية جمع دلائل جديدة عن الاتصالات بين مختلف الثقافات والتي دامت فترات طويلة بين جانبي الهلال الخصيب وما وراءه حتى الهضبة الإيرانية والبحر الأبيض المتوسط، متتبعين أصل طريق الحرير حتى قبل ظهور الكتابة. وقد لعبت السفوح الجبلية (Pedemont) والمنطقة المحيطة بها دوراً نشطاً في عملية تشكل شبكة تبادل على مسافات واسعة، عبر قوس من المناطق المرتفعة التي تتخللها أنهار وجداول بشكل طبيعي، وتقع قرب مناطق غنية بالموارد. وعلى طول السفوح الجبلية والمناطق المرتفعة، كانت المجتمعات الزراعية في «حلف» على اتصال ببعضها البعض؛ فقد وصل أسلوب(١) فخاريات حلف إلى البحر المتوسط والهضبة الإيرانية، وهو ما توثقه السجلات في مرسين ورأس شمرا من ناحية، وفي غيان Giyan VA في لوريستان وفي سهل سوسيانا في مرحلة(٢) خزنية.

إن ظهور المجتمعات على ضفاف النهر خلال مرحلة العبيد لم تغير من واقع هذه الصورة المتمثلة في الاتصال بين المنطقة الإقليمية؛ وقد توسعت بإدماج الأراضي الواقعة على ضفاف الأنهار وساحل الجزيرة العربية(٣). وجاء ازدياد حركة المرور نتيجة الاتجاه نحو إقامة مجتمع مركب من مجتمعات العبيديين، كما سمح التحكم بالموارد ومركزيتها وتحسين مرافق التخزين بتحرك وتبادل مكثفين أكبر للسلع وإمدادات الغذاء(٤).

إن انتشار فخاريات العبيد ونموذجها، والأختام التي تصور حيوانات والتي تعبر عن الخصوبة تعتبر شواهد عن استمرار التبادل الثقافي الشامل فيما بين المناطق البعيدة.

وقد يكون توسع ثقافة أوروك قد غيّر هذا الأفق تغييراً كبيراً وجعله متكاملاً بل ذا تنظيم مؤسساتي، يقوم بتنسيقه مركز يتجاوز الإقليمية، وينبغي توثيق الشيء الكثير حول نظام التجارة المبكر بين الأقاليم، إلا أن أهمية السيطرة على طرق Pedemont هي التي شكلت فيما بعد النتيجة الطبيعية لتوسع أوروك. وفي تحليله العام لنظام عالم أوروك(٥) حدد الغزي Algaze عملية تتكون من أربع مراحل لتوسع مجتمعات ما بين الرافدين في عصر أوروك: فقد شهدت المرحلة الأولى السيطرة على سهول جنوب غربي إيران وإقامة مستعمرات: وشهدت المرحلة الثانية إقامة مستوطنات جديدة في مناطق مستقرة ثانوية، والسيطرة على مواقع محلية كانت تتمتع بالمركزية على طول الطرق الطبيعية؛ أما المرحلة الثالثة فقد شهدت استيطان مناطق مدنية داخلية في منطقة الفرات الأعلى؛ في حين شهدت المرحلة الرابعة والأخيرة إنشاء مناطق داخلية متخصصة في المناطق البعيدة. ووفق هذا التفسير، تم التوصل إلى نقطة تحول محددة للمراكز السكنية المحلية اللاحقة لفترة العبيد أو العصر النحاسي المتأخر خلال المرحلة الثانية، مع قيام «المجتمعات المتكاملة» وذات الموارد القليلة في بلاد ما بين

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

الرافدين بالاستيلاء على «المجتمعات الأقل تطوراً في المناطق المرتفعة». ويركز هذا التحليل على عملية التفاعل بين المركز والمحيط، حيث أن المركز يشكل «قوة لإحداث التغيير في المجتمعات المحلية الأقل تطوراً في المنطقة المحيطة بالدول التوسعية القديمة»[٦]، ورغم أنها لا تنكر حقيقة شبكة التبادل الأقاليمية السابقة أو وجود مجتمعات محلية مركبة فهي لا تبحث في الدور النشط لكل من عملية التغيير التي أدت إلى حدوث المجتمع المدني. ولن أنتقد هنا وجهة النظر هذه أو دور المجتمعات النهرية في هذا السياق؛ كما أني أدرك تماماً أن البحث عن باعث رئيسي مجرد أمر نظري بحت. وقبل فهم طبيعة وتركيبة المجتمعات المدنية البدائية بشكل صحيح فإن الحاجة تستدعي الحصول على دلائل جديدة: وعلى أي حال فإن تجاهل دورها النشط في عملية المجتمعات المدنية قد يكون من باب التبسيط المخل.

العصر ما قبل البرونزي

خلال أواخر العصر النحاسي، كانت شمال سورية وبلاد ما بين الرافدين وجنوب الأناضول تشترك في صفات وخصائص التحول الاجتماعي والثقافي؛ فقد تميزت قطع السيراميك المجمعة لفترة ما بعد العبيد المحلية باتجاه عام نحو التبسيط والتوحيد؛ وتظهر المستوطنات وضوحاً جديداً في الحجم والموقع. وتوجد وثائق عن تزايد المركزية في الكثير من المواقع في مالاتيا وفي تيب غورا[٧] (Tepe Gawra). وتتصف الفخاريات في الجزء الغربي والشمالي من المنطقة الشاسعة بالأواني الخزفية المقواة بالتبن (Chaff Faced Ware) التي بنوعيتها الجديدة والزبادي ذات الإنتاج الكبير، تشير إلى وجود وحدة ثقافية كبيرة تنتشر في أكثر أودية الأنهار أهمية، من الفرات الأعلى والبليخ وحتى نهر قويق ومروراً بالعاصي المنخفض وعفرين وكراسو المطلة على واد العمق. وقد اتسم هذا المنحنى الواقع في أقصى الغرب في الفترة العبيدية بتركز سكاني مكثف بسبب الموارد الطبيعية والمناخ وخصوبة التربة وإمكانية استغلالها زراعياً على نحو مكثف. وقد تم نقل حجر السبّج (زجاج بركاني أسود) المستخرج من منطقة تشفتليك في سلسلة جبال طوروس بشكل رئيسي[٩] على طول الطرق الداخلية لهذه المنطقة واستخدام الشبكة نفسها بواسطة تجارة النحاس وربما القصدير في أواخر العصر النحاسي وبداية العصر البرونزي وربما العصر القصديري[١٠]. وبسبب اتصالها الطبيعي، لعبت المنطقة فيما بعد دوراً هاماً كمفترق للطرق للكثير من طرق التجارة بحيث ربطت مناطق طوروس الغنية بالموارد وهضبة الأناضول بالبحر الأبيض المتوسط ودول المدن القوية وممالك سورية وبلاد ما بين النهرين.

لقد أظهرت دلائل الاكتشافات الأثرية الجديدة من أواخر العصر النحاسي في هذه المنطقة عملية وجود مركزية كثيفة من الحفريات التي أجريت في تل آفيس في سهل إدلب ومن المسح الذي أجري في شمالي هذا الموقع وعلى طول الطرق الرئيسية الممتدة إلى وادي العمق.

أحرز تقدم في الأعوام ١٩٩١ و١٩٩٢ و١٩٩٤ في منطقتين مختلفتين من الأكروبوليس، المنطقة E1-2 على المنحدر الغربي، حيث كانت قد كشفت سلسلة طويلة من مستويات العصر الحديدي الأول والمنطقة G على الجانب الشرقي الواقعة قرب مقبرة الشيخ حسن ومقبرة حديثة صغيرة، حيث بوسعنا تتبع باحة كبيرة مرصوفة بالحجر وواجهات آجرية محفوظة جيداً من العصر الحديدي الثاني (الشكل ١).

وقد تم توسيع الخندق المدرج في المنطقة E1 غرباً ووصل طوله إلى ٣٠م، كاشفاً عن سلسلة متتابعة من ٢٦ مستوى من أعلى الأكروبوليس حتى قاعدته في المدينة الغربية الأكثر انخفاضاً (الشكل ٢). ومن الجلي أن هذه القاعدة قد بنيت بالجدارين الضخمين المحفوظين جيداً من أواخر العصر البرونزي الأوسط وMBLL، مع البقايا المتناثرة لمستوطنة العصر البرونزي القديم EB-IVAB بينهما (الشكل ٣ الأعلى). ويتألف سور المرحلة المتأخرة من العصر البرونزي (M. 1155) الذي كشف ما يقرب من ٢٠ متراً منه (الشكل ٤) من بناء حجري مرتفع متين طوله متران، مع واجهة خارجية من الأحجار الكبيرة مصفوفة على ثلاث مصاطب قليلة الانحدار. ويقوم فوق هذه القاعدة بناء مرتفع طوله متر مشكل من مستويات من الحصى متداخلة بخليط من الطين وعدد قليل من الآجر فوق طبقات من القش معاملة بنوع من الجص الأبيض المقاوم للمياه. وتظهر الواجهة العلوية من النسق العلوي للقاعدة الحجرية، في جزء صغير منها في

الوسط، مبنية من الحصى لتكون بمثابة مصطبة حقيقية لهذا المبنى العلوي. أما الأرض أمام الجدار فهي منحدرة قليلاً باتجاه المدينة المنخفضة؛ ولعل خندقاً غير عميق يواجه السور، لضمان جريان الأمطار لجمعها بهدف عدم حدوث أي ضرر للمبنى.

وكان راسب سميك ومتجانس يغطي السور، الذي شهد امتلاء بسبب الريح بشكل بطيء على مدى فترة طويلة (الشكل ٣)؛ ويمكن تمييز ثلاث مراحل مختلفة في طبقات الصخور وهي: الأرض الأصلية (L. 1603, Lev. 18e) وحشوتها الريحية (Liv 18d)، وأرض ثانية (Liv 18c) وحشوتها النهائية والبطيئة، والمستوى النهائي الممتلىء بالنفايات والغني بمواد عديدة (Liv. 18a-b). وطبقات الصخور هذه محفوظة جيداً في القسم الجنوبي للسور (COPIV20) في حين أن حفرة كبيرة مليئة بالنفايات في القسم الشمالي (COPV3) قد شوهت القسم العلوي من الجدار، حيث ترتكز دعامة من الطوب فوق قاعدة من الأحجار الضخمة فوق خط السور. إن الحشوة الشديدة النعومة والرملية والغنية بالمواد العضوية المحمولة بواسطة الريح، تشير إلى امتلاء الأرض الخارجية بالطمي نتيجة استخدامها الطويل جداً، ونظراً لعدم وجود بقايا محروقة أو دلائل على تدمير عنيف على طول مقدمة الجدار، حتى في مراحل استخدامها الأخير وانهيارها النسبي، يمكننا أن نفترض تداعياً بطيئاً للبناء بعد هجر الموقع.

تم جمع عدد من الأختام من حشوة السور (الشكل ٥، الأسفل). ويأتي ختم اسطواني (TA. 94, E.250) من الأعلى على مستوى a-b18 والرموز فيه معروفة جيداً في أواخر فترة أوروك السورية[١٢] (جمدت نصر) Jemdet Nas. إن مشهد صف من مختلف أنواع الحيوانات من الماعز والغزلان والكباش، والأسماك والطيور والأوراق كحشيات، موثق جيداً في الأختام السورية المبكرة من هذه الفترة، ويمكن مقارنتها بختمين من مجموعة يال البابلية ومتحف Ashmolean الذي يستمد الرسوم من أواخر فترة أوروك المحلية[١٤]. ومن المستوى العلوي جداً a,b18 يأتي ختم جملوني بأربعة رؤوس غزلان كما نرى في جملونين، واحد من متحف Ashmolean والآخر من مجموعة (Chiha). إن الرؤوس الجميلة المحفورة في الجملون من آفيس يمكن موازاتها بطبقتنا الثانية للجمالونات السورية الأناضولية، كما تتصف بعدد من الأختام الأسطوانية في الفتحات كالواردة من تشاكازو/كوبا هويوك، والجمالون الأكثر نظامية هو من تل جديدة (١٧) من مرحلة F من العمق. ومن نفس الحشوات يأتي ختم تعويذة في شكل قنفذ محفور على شكل غزال (TA.94, E.378) وخاتم بشبكة (TA.94, E.253) مشابه للأختام من تل براك والعمق F180 ويمكن مقارنة خاتم طيني على شكل نبات بـ Pintaderas من بيبلوس، ونجد شعارات في الرسوم من جاوا وتل أم حماد[١٩].

إن الصناعة الحجرية المؤلفة بصورة رئيسية من شفرات من الزجاج البركاني الأسود، وأحجار صغيرة مثلثة الشكل وشفرات كنعانية، موثقة جيداً في نفس منطقة الانتشار التي تغطيها الفخاريات المحلية. ويشير ارتفاع النسبة المئوية للشفرات من الزجاج البركاني إلى وجود اتصالات قوية ومباشرة مع شمال طوروس، حيث تم استخراج المادة الأولية[٢٠].

وتنتمي مجموعة الفخاريات من (الحواشي) إلى محيط ثقافي متجانس. وأكثر هذه الفخاريات تصويراً لذلك هي التي يظهر التبن على سطحها في ثلاثة أشكال: أحمر برتقالي وبيج وأخضر رملي، ونادراً ما تكون مصقولة. أما زبادي Coba (من موقع كوبا هويوك / ساكجاغوزو) المكشوطة بالصوان غالباً، والمنتجة بكميات كبيرة فهي أكثر الأشكال توثيقاً (الشكل ٦). في حين أن زبادي Bead Rim أقل عدداً فضلاً عن الزبادي ذات الحواف البسيطة (الشكل ٧). وكانت حواف الجرار تُعمل بشكل منتفخ أو بحواف بسيطة مقلوبة إلى الخارج (الشكل ٨). كما توثق فخاريات بسيطة ذات حبيبات معدنية وقوام ناعم خفيف متبقية من التقاليد العبيدية، كما تسود كؤوس وأكواب مخروطية الشكل في هذا النسيج. كما توثق فخاريات مرسومة على سطح يظهر عليه التبن بأشكال بسيطة تعود إلى العهد السوري العبيدي المتأخر، ولو بنسب ضئيلة (الشكل ٩ ١٦:٩ - ١٩, ١٠ ٨:١٠ - ١٠, ١١ - ٤) وعلى نسيج أخضر رملي قريب من التقليد العبيدي، وهو نوع من التقليد العبيدي المحلي الذي دب فيه الانحلال (الأشكال ٩:١ - ٦, ٩ - ١٢, ٢ - ٤, ٦ - ٧) وتمثل الفخاريات المصقولة نسبة محدودة جداً (الشكل

٩:١٣ - ١٤)، غالباً في زبادي لم يتم إنتاجها محلياً وهي تقليد للأواني المصقولة السوداء الواردة من الأناضول، وهي موثقة كذلك في عدد قليل من القطع في آفيس. والأواني ا لمصقولة والمصقولة الحمراء نادرة جداً. وتم زخرفة عدد قليل من القطع المصقولة الرمادية بإجراء شقوق فيها (الشكل ٥:١١)[٢١] وقطع قليلة من عبيد وحلف من أكثر السويات عمقاً في الموقع وهي تسجل التاريخ الطويل للمستوطنة خلال العصر النحاسي بأكمله.

بني سور مدينة آفيس في المرحلة الأخيرة من أواخر العصر النحاسي نظراً لأنه مكسو بسلسلة طويلة من المستويات (١٩ - ٢٦) التي ظهرت بعد سبر أجري في عام ١٩٩٢ على قاعدته (الشكل ٣ السفلي) : وتُسجل ثلاث مراحل مميزة في هذه السلسلة، تتألف الأخيرة منها من باحة مرصوفة مفتوحة ذات موقد كبير على شكل قمع. إن أفق الآنية لهذه السلسلة يتوافق تماماً مع حشوة الجدار في الفترة اللاحقة، حيث سادت الآنية ذات السطح الممزوج بالتبن على البسيطة منها، ونسبة محدودة من الآنية المطلية التي تعود إلى أواخر الفترة العبيدية (الشكل ١٢ الأسفل). إن وجود هذه المستويات من الخوابي الكبيرة المخزنة في أواني بسيطة (الشكل ١٢، الأعلى) وقطعة من خابية المونه (Reserved slip) ذات رسوم وكتابات غير واضحة تشير إلى احتمال وجود علاقة، على الأقل بالنسبة للجزء الأوسط من هذه السلسلة المحلية مع مرحلة أوروك المتوسطة من بلاد الرافدين. وتفصل أكثر من ستة أمتار من الأنقاض الأثرية هذا المستوى عن التربة العذراء، كما نعلم من ثقب أجري في نهاية الموسم عند الحافة الغربية من عملية السبر: وبالمقارنة مع السلاسل الطويلة من فترات حلف عبيد الموثقة في أنحاء شمالي سورية، فمن الممكن تحديد هذه السوية العميقة وربطها بهذه المراحل، وبما أن التربة العذراء تقع على عمق ما لا يقل عن ثلاثة أمتار فوق السهل المحيط خارج المدينة السفلى، كان على المستوطنة الأولى من آفيس أن تقام فوق حجر كلسي طبيعي في وضع مرئي في سهل الطمي بممراته الطبيعية إلى الساحل وجبال طوروس الشمالية ووادي الفرات.

إن السلسلة الطويلة التي تعود إلى أواخر الفترة النحاسية في آفيس تتسم باستمرار السكن فيها على مدى فترة طويلة، وقد توج ذلك ببناء مدينة ضخمة، والتي من المحتمل أن تكون قد تدهورت حالتها وهجرت في نهاية الأمر. وهذا الأفق موثق جيدا في منطقة جغرافية واسعة تغطي جنوب وسط الأناضول (Malatya VII, Kurban Huyuk/ Cuba Huyuk) وجنوب الأناضول (Sakcagozu) التي منحت الاسم لهذا النمط وشمال شرقي سورية (تل ليلان وتل براك) وشمالي سورية (تل حمام التركمان) والساحل السوري (العمق F، رأس شمرا III٢) ووسط سورية (حماة، قلعة المضيق)[٢٣]، وهو موثق على مدى فترة طويلة من الزمن، وتظهر بوضوح العديد من المراحل الفرعية والتباينات الإقليمية في مختلف المواقع. ففي تل حمام، فإن الفخاريات المطلية من نموذج المرحلة العبيدية المتأخرة (IV A-D) منفصلة عن مرحلة VA بأواني سطحها ممزوج بالتبن وزبادي كوبة وأخرى (VB) تتصف باختفاء زبادي كوبة ووجود الزبادي ذات الحواف المنتفخة والأواني البسيطة. وفي أماكن أخرى لا يوجد دليل على هذه المراحل المنفصلة من التطور بنفس السلسلة؛ وقد تكون هذه حالة الساحل السوري، وعلى الأقل في رأس شمرا. أما في سلسلة العمق فتوجد فجوة في الوثائق بين مرحلتي E وF. وتظهر الأواني ذات السطح الممزوج بالتبن في طرسوس في أفق المرحلة العبيدية المتأخرة مع زبادي كوبة الموجودة كذلك في المرحلة المحلية الأخيرة من العصر النحاسي المتأخر، موازياً لحالة السلسلة الطويلة لأفق آفيس[٢٤]. وفي تل العبر على الفرات، حيث تم الحصول على سلسلة طويلة لفترات العبيد والأوروك، يمكن تسجيل تطور مشابه؛ ومن الجدير المقارنة مع مواد آفيس الزبادي ذات الحواف المصقولة المقلوبة والنافرة[٢٥] من مستويات أوروك الوسطى. وفي تل ليلان Vib، توجد نسبة صغيرة من أواني العبيد المطلية في الأفق المتسم بزبادي كوبة والأواني التي يظهر التبن على سطحها؛ وفي ليلان ٧ ثمة انحدار شديد في الأواني المطلية في حين ماتزال ذات السطح الممزوج بالتبن مسجلة بطائفة واسعة من الأشكال، من بينها زبادي كوبة المنحدرة وستختفي في ليلان ١٧، لتحل محلها أنماط أوروك المتأخرة كالزبادي ذات الحواف المشطوفة[٢٦].

ويتوفر عدد قليل من الوثائق في سلسلة آفيس التي تتيح استحداث تأريخ محلي نسبي. إن وجود قطعة من

خابية المونة (Resrved Slip) في المستوى ٢١، وهي مرحلة تسبق سور المدينة تماماً قد تدعم ارتباط هذا المستوى بمرحلة أوروك الوسطى، تماما عندما تم توثيق الرموز لأول مرة في سورية في تل شيخ حسن[٢٧].

إن خوابي التخزين البسيطة التي وجدت في فترة أبكر من نفس المرحلة قد تشير إلى تاريخ مشابه. فقد تم جمع عدد قليل من الأشياء والقطع من فوق قمة السور، وفي الأنقاض التي تعود إلى انهيارها الأخير، والتي تشهد على مرحلة لاحقة، وهي كسرة فخارية مرسومة بشكل حيوان مع علامة فخارية، وختم اسطواني من الحجر الكلسي بشكل خط وقوقعة حيوان مصغرة[٢٨].

إن أفق الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن يحمل دليلا على زبادي كوبة (Coba) على الأقل في شمالي سورية على مدى فترة طويلة، وهي توازي في مرحلة مبكرة الفترة العبيدية النهائية أو ما بعد فترة العبيدية مباشرة وأوائل أوروك[٢٩] ومتداخلة مع فترتي أوروك الوسطى والمتأخرة. إن استمرار وجود هذا الأفق خاصة ثقافية إقليمية محلية، في منطقة الفرات والخابور خلال فترات أوروك الوسطى والمتأخرة، توجد أواني الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن Chaff Faced مع فخاريات أوروك في المستوطنات المحلية[٣٠] في حين لا تسجل في المناطق الداخلية لأوروك سوى أشكال أوروك. وفي مالاتيا ٧١١ ظهرت سلسلة طويلة لأواني الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن وزبادي كوبة، وربطت بعدة مستويات مهنية[٣١]. وفي النهاية فقد حل أفق الحافة المقلوبة في مالاتيا VIA محل الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن بعناصر من تقاليد أواخر أوروك.

من المؤكد أن عدداً قليلاً من الاتجاهات الإقليمية كانت تسود المنطقة بأكملها، والتي كانت متماشية مع الواقع المحدد الاجتماعي والاقتصادي للمستوطنات المحلية، ومستوى تشكلها الاجتماعي المركب أو ارتباطاتها بمناطق أوروك. ويظهر تل آفيس دليلاً عن استمرارية قوية من نفس الأفق على مدى سلسلة طويلة تتسم بتحول المستوطنة إلى موقع محصن وربما مركزي. وبشكل مبدئي، فقد تكون أواخر العصر النحاسي لآفيس مرتبطاً بأوائل أوروك في مرحلتها المبدئية (Livv. 25-22) إلى منتصف فترة أوروك ٢١ ـ ٨١٩ وأواخر فترة أوروك (a-b18). لقد بني سور المدينة بطبقته الأولى (Lev. 18e) والثانية (Lev. 18c) في مرحلة لاحقة من هذه السلسلة، ربما في مرحلة متقدمة من أفق الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن؛ واستخدامه النهائي وهجره (a-b18) في المرحلة الأخيرة من نفس الأفق قد تكون موازية لفترة أواخر أوروك النهائية.

إن وجود أبنية إدارية (مالاتيا VII، وتل حمام VA) بل وحتى أسوار المدينة الضخمة (آفيس، جاوة، صيدا، رأس شمرة، بيبلوس ومالاتيا)[٣٢] وانتشار الفخاريات المنتجة بكميات ضخمة، بتكاليف منخفضة جداً من قبيل زبادي كوبة والفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن بأختام اسطوانية ودمغات على الخوابي في المشرق بأكمله، لهو دليل واضح عن انتشار وكثافة عملية تمدن محلية وأصلية، وتشكل المجتمعات المركبة التي بدأت بعد المرحلة العبيدية مباشرة ووصولها إلى الذروة في غداة توسع أوروك أو في بدايتها. ففي مالاتيا، يمكن إرجاع هذه الفترة بدقة إلى المرحلة VII وقبل انتشار ثقافة أوروك التي أثرت على مستوطنة VIA-B المحلية. ونفس السلسلة واضحة في تل براك حيث أن المستويات التي اتصف بها هذا الأفق تسبق فترة أواخر أوروك. ومن حكم المؤكد فإنه لايزال من الضروري بناء إطار تاريخي مأمون لهذه الفترة تتعلق بالسلاسل الثقافية المحلية، لإظهار فروقات قليلة بين انسجام كبير مع الفترة التاريخية لمنطقة بلاد الرافدين.

إن الدليل الجديد يطرح أسئلة جديدة حول دور المناطق «المحيطة» في عملية ظهور التمدن وعلاقتها وإمكانية سبقها لتوسع أوروك. فقد ربط تفسير ـ ظهر مؤخراً ـ وجود المستوطنات المحصنة في السهول السورية ـ بلاد الرافدين خلال هذه المرحلة إلى ازدياد الضرورات الدفاعية استجابة للدور القمعي الذي لعبته مناطق أوروك الداخلية[٣٣]. إلا أن سور المدينة الدفاعي ليس سمة محصورة بسورية ـ بلاد ما بين النهرين، بل هو موثق في حقيقة الأمر في جميع مناطق المشرق، وكذلك في المناطق التي لم تتأثر بسيطرة أوروك، كما كان حال بيبلوس وجاوة. وإني أربطها بعملية المركزية المشرقية العامة التي تحتاج إلى استراتيجيات دفاعية ودور متزايد للسيطرة على المناطق المحيطة. إن وجود شبكة

المستوطنات الأكثر استقرارا وازدياد التراتبية في هذه الشبكة تعد من خصائص هذه الفترة، كما أشارت إلى ذلك العديد من المسوحات التي أجريت بدءاً من شرقي الأردن وحتى هضبة الأناضول.

إن المسح الذي أجري في سهل آفيس في عام ١٩٩٣، أتاح توثيقاً جيداً لهذه العمية بالذات[٣٤]. وقد شمل المسح سهل الطمي الواقع شمال الموقع الذي يحده جبل سمعان شمالاً، وجبل بريشا إلى الشمال الغربي، وهو يقع في الجزء الشمالي ـ الشرقي من محافظة إدلب. كما تم مسح عدد من التلال الواقعة خارج هذه المنطقة، في نفس منطقة إدلب للحصول على مزيد من المعلومات حول أواخر العصور النحاسية.

وإلى شمال وشمال غرب تل آفيس، يوجد عدد من المواقع الصغيرة نوعا ما والواطئة في السهل. وهي تغطي جميعها فترة طويلة من السكن في الفترة العبيدية المتأخرة وحتى الفترة الفارسية ـ الإغريقية مع تذبذب محدود ظهر خلال تلك الفترة الطويلة. وتوجد معظم مواقع أواخر العصر النحاسي على طول خط شمالي ـ جنوبي. ففي شمال آفيس كشفت التلة الواطئة جدا لتل محلق عن مواد من حلف والعبيد من الفترة البرونزية الأولى IV ومواد من العصر البرونزي الأوسط II. ويوجد على مسافة عدة كيلومترات إلى الشمال تل أربيغ، وكذلك منخفض جداً فوق السهل مع ظهور دلائل جيدة من مواد تعود إلى العصر البرونزي المتأخر، المركزة بشكل رئيسي على الطرف الجنوبي لتوطن إسلامي في فترة لاحقة؛ ويتسم أفق الفخاريات هنا بالآنية ذات السطح الممزوج بالتبن في أشكال زبادي كوبة وذات حواف محدبة بالإضافة إلى عدد قليل من الفخاريات الممزوجة بالتبن المطلية من نموذج أواخر الفترة العبيدية، وفي أشكال خوابي ذات حواف وكؤوس. وتم جمع الفخاريات نفسها في تل شعلاك وتل زردينا شمال تفتناز؛ الأول عبارة عن تلة صغيرة، جرفت أطرافه جزئياً بسبب ظهور القرية الحديثة، مظهرة دلائل واسعة عن وجود سكن في أوائل العصر البرونزي I-IV والأوسط II، أما الثاني فهو عبارة عن تل مرتفع، تم حفر أحد جوانبه ويظهر أثاراً من سلسلة طويلة من السكن من فترات البرونز المبكر EB وحتى البرونز الأوسط والمتأخر MB وLB والعصر الحديدي. وتم جمع الوثائق المتعلقة بالمراحل الأولى من السكن في قاعدة التلال التي آفيسدتها في معظم الأحيان الحفريات الأخيرة، والتي كشفت في بعض الأحيان عن ترسبات عميقة (تل شعلك وزردينا)، أو حيث أدت الأعمال الحقلية الواسعة إلى تسوية التلال الأصلية، فكشفت جزئيا المستويات الأولى (تل محلق وتل أربيغ). إن المرحلة المتأخرة من العصر النحاسي مازالت مطمورة في أعمق طبقات الوادي، ولا يمكن توثيقها إلا بين الحين والآخر. وفي جميع الأحوال، فإن المواقع الصغيرة الأخرى لم تظهر أثاراً أو دلائل على هذه المرحلة مثل تل صندل وتل بنيات الخليل وتل العين وتل النيرب، إلا أنها جميعها تحتوي على وثائق جيدة تعود إلى فترات البرونز المبكر ٤، الأوسط ٢، والمتأخر ١-٣ EBIV, MB II, IA-I-III وكشفت قرية بنش قطعا صغيرة متناثرة من العصر الحديدي II-III والعصر البرونزي الأول، وقد بنيت القرية في واقع الأمر فوق تلة صغيرة أصابها التهدم بدرجة كبيرة، وتلة طبيعية من الأحجار الكلسية، وقد تخللتها الكهوف التي استخدمت كمأوى للرعاة. إن القطع الصغيرة القليلة من عصر البرونز المبكر ٤ EB IV التي تم جمعها من الأساسات المكشوفة من بعض البيوت قد تدعم التعرف على هذا الموقع مع بنش الذي ورد ذكره في حفل تتويج أو شعائر زواج في سجلات إبلا كمكان لعبادة أسلاف العائلة الحاكمة.

يعد تل نوار عند تقاطع الطريق بين منطقة حلب إلى الشرق وسهل العمق غرباً أكبر تلة في شمالي آفيس، ويهيمن على الممر بين جبل باريشا وجبل سمعان. والتلة مرتفعة جدا عن السهل وتبلغ مساحتها حوالي ١٠ هكتارات. وقد شكلت هذه التلة بصورة رئيسية من المستويات الفارسية والهيلينية عند القمة والعصر الحديدي I-III على المنحدرات الوسطى. وإلى الشمال الشرقي ينفتح واد على التلة، يكشف على الجانب الشمالي جدران بوابة مؤلفة من غرفتين تتصل بسور خارجي للمدينة على الطرف الشرقي من التلة ومبني من أحجار كلسية ضخمة. وقد يعود هذا السور إلى البورنز الأوسط ٢ـ البرونز المتأخر ١ـ٢ MB11 LB-1-II وهو مبني فوق مصطبة من القرميد الطيني من مرحلة أبكر توازي السلسلة في تل آفيس، حيث بنيت أساسات سور المدينة الدفاعي من عصر البرونز الأوسط MB II مباشرة فوق مستوطنة البرونز القديم ٤ ب EB IVB الأخيرة. وتم جمع قطع متناثرة تعود إلى أواخر فترات العبيديين والعصر النحاسي

في قاعدة الطرف الغربي للتلة، وتم توثيق زبادي كوبة وفخاريات ذات فتحات على شكل أطواق وأواني ذات السطح الممزوج بالتبن، وتشبه الأشكال والطين بعض تلك الموجودة في تل آفيس شبها تاما، مما يظهر الوحدة الثقافية لهذه المنطقة في هذه المرحلة. ويبدو أن السكن في أواخر العصر النحاسي ينحصر في المنطقة الوسطى من سهل آفيس: فقد تم توثيق هذه المرحلة جيدا نتيجة لمسح الروج إلى الغرب، إلا أنه يبدو أنه لا يوجد على الجانب الشرقي من سهل إدلب. ويمكننا أن نقدر فيما إذا كان ذلك يعتمد على الطبيعية العرضية بسبب تعرض أعمق طبقات التلال المرئية على السهل كما لاحظنا في عدة حالات، ولكن في عدد قليل من التلال التي تم زيارتها خارج السهل مثل تل داديخ. وقد قمنا بجمع قطع تعود إلى أواخر العصر النحاسي في قاعدة على الجانب الشرقي من التلة وإلى غرب تل مرديخ.

وكشف المسح منظومة من المستوطنات تعود إلى المرحلة النحاسية المتأخرة المعاصرة لنمو مدينة آفيس وسورها الدفاعي، المركز في معظمه في المنطقة الوسطى من الوادي الذي أغناها زراعياً وجعلها أكثر سهولة في الاتصال على مفترق الطرق الرئيسية إلى منطقة العمق. وكانت الروابط الثقافية مرتبطة بشكل وثيق بهذه المناطق في المراحل الأولى من فترات العبيدين إلى أوائل العصر البرونزي كما هو موثق في الفخاريات وصناعة الأحجار والأختام. وكانت المنطقة تعد مفترق طرق طبيعي، ربما تم عن طريقه نقل حجر السبج من الهضبة الأناضولية إلى سورية في المراحل الأولى، وذلك موثق جيداً في آفيس بالإضافة إلى النحاس اعتباراً من الألف الثالث وحتى الآن.

إن البحث عن مفترق طريق من الجانب الشمالي من سهل آفيس إلى الغرب، وهو ممر طبيعي إلى وادي نهر العاصي يحيط الأطراف الشمالية لجبل باريشا وجبل العلى وجبل الدويلة، في النقطة التي يتدفق فيها نهر العاصي وعفرين إلى الوادي. ومن المؤكد أن موقع حارم الكبير كان يهيمن على هذا الجانب من السهل، حيث بنيت القلاع البيزنطية والإسلامية فوق التلة السابقة التي أقيمت من البقايا المرتفعة التي تعود إلى أوائل العصر البرونزي الرابع ومنتصف العصر البرونزي الثاني، وربما إلى العصر الحديدي، وثمة طريق ثان من آفيس عبر الممر بين جبل الزاوية وجبل باريشا إلى سهل الروج حيث كشفت البعثة اليابانية من جامعة طوكيو بقيادة البروفسور إيوازاشي عددا من المواقع من العصر النحاسي المليئة بمواد تتعلق بحلف - عبيد خلال المراحل المحلية من الروج ٣ - ٥ (حلف، عبيد وأوروك). ويوازي تل عبد العزيز سلسلة آفيس بمواد من آخر المرحلة العبيدية وأواخر المرحلة النحاسية التي شهدت وحدة ثقافية لهذه المنطقة على مدار هذه الفترة. ويظهر موقع وكثافة مستوطنات العصر النحاسي المتأخر في المنطقة تخللاً أشد وزيادة في الاستقرار الثابت خلال المرحلة التي ترتبط بتكثيف الزراعة والتجارة.

وباتباع الطريق المؤدي إلى وادي العاصي المنخفض من الطرف الشمالي لسهل آفيس، هناك تل آخر تحوي قاعدته مواد من أواخر العصر النحاسي وهو تل بلك، وهو عبارة عن تلتين متوسطتي الحجم الذي تم احتلاله كذلك خلال أوائل العصر البرونزي وأواخر العصر البرونزي والعصر الحديدي ١ - ٣ والعصر الهليني والبيزنطي. ويقع غرب سلقين على الضفة الشرقية من سهل العاصي معبر آخر للنهر عبر الجبال قبل أن تصب في سهل انطاكية، في وضع مربح جداً للسيطرة على طريق النهر واستغلال الزراعة. كما يعد الموقع هاماً نظراً لثرائه بالرواسب من عصر البرونز المبكر ٢-٣ EB II-III، وتغطي منطقة واسعة من جنوب غربي التلة بقطع حمراء مائلة للسواد محروقة (الشكل ١٣)، وربما نجمت عن عمل ورشة متخصصة. وتبدو الأشكال والطين والزخارف مشابهة جداً لأنماط من المواقع في « منطقة العمق » في مرحلة H مظهرة أصلاً مشتركاً ونفس الصانع، وربما كانت ورشة تل بلك منطقة الفرن الرئيسية لهذه الفخاريات في منطقة العاصي السفلى.

توفر عملية المسح في آفيس دليلاً جديداً لصورة منطقة شهدت زيادة مضطردة في السكن مع تراتبية في المستوطنة وشبكة من مواقع صغيرة حول مدن قليلة تعمل بمثابة أماكن مركزية مدعمة بقوة، فيها مباني رسمية أو وحدات مركزية لتخزين إمدادات الغذاء والمصادر الطبيعية والتحكم بها وتبادلها مع الخارج.

وسأختتم كلمتي بملاحظة عامة حول دور سورية في هذا الصدد، إذ لم يكن دور منطقة فرعية لم يستفد من التأثير المهيمن للمجتمعات المتكاملة جدا للطمي فحسب،

مل كذلك للمناطق الداخلية ذات الطابع المحلي المستفيدة من الموارد الطبيعية والموارد الزراعية المختلفة والتغلغل بين الأقاليم. فعلى هذا الأساس، تطورت المجتمعات المحلية بالتدريج إلى مستوى مجتمعات مركزية متقدمة.